القرية المصرية

بقلم الدكتور منصور فهمى بك

مدير دار الكتب والعضو بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

ما من أحد نال حظا من الذوق السليم ، وأتيح له أن يعيش فى ريف مصر وقراها إلا شعر بحاجة هذا الريف وتلك القرى الى الإصلاح .

فقد تمثل القرية — حين ترى من بعيد — كأنها ركام من التقع والعفر ينعقد على بساط محدود من السندس ليعطل نسق هذا الجمال الممدود . وكأنى بالقرية المصرية — وهى تبدو كرقعة سوداء قاتمة فى وجه هذا الفضاء الريفى الذى يسطع ضياؤه وتصفو سماؤه — كانى بها فرضت لتشوه ما ينبغى أن يكون إنعاشا للخواطر وإمتاعا للنواظر .

أما فى داخل القرية فطرقات ملتوية متربة ، لا استواء فيها ولا تعبيد ، وأخرى على جوانبها أكوام من الأسمدة والأقذار ، تطوف حولها أبابيل الذباب ، ويثار فى مفسود جوها الغبار .

واذا ألقيت ببصرك على ما يغدو فى هذه السبل ويروح ، فكثيرا ما يقع البصر على انسان رث الثياب أغبر الوجه أصفر اللون أرمد العين أو على حيوان مستأنس يترغ على كومة كأنه يشاطر القرية أو تشاطره بعض ما يلازمها من السوء أو على أطفال يلعبون فى القفر ويعبثون فى الاقذار .

واذا أشعت النظر فى جوانب هذه الطرقات فثم بيوت من اللبن الأخضر أو الأحمر منطمنة ضيقة النوافذ ، مكفهرة اللون ، خالية من المتاع إلا من بعض جرار للماء الكدر ، وأدوات أولية للعجين والخبز والطبخ ، وأردية لسيئ الغطاء وسيئ الوطاء ، وهناك يحوم بعض الدواجن حول الآدميين القابعين فى أعقار هذه الدور المشكلة فى أحط الأوضاع وأبشع الصور .

واذا أردت أن تتبين ما قد يتاخم هذه القرية ، فثم البرك والمستنقعات ، أو المقابر عفى على بعضها الزمن فانفرت رموسها ، وربما تبعثرت منها بقية من عظام . وقد تمر على دهن المارء — وهو فى قرية من قرى مصر — ذكريات الماضين وخيال الأولين ، فيلوح له أنه فى عالم تولى من آلاف السنين . لأن القرية المصرية ظلت الى اليوم كأنها هى قرية

الغابرين ، لا تتغير ولا تتبدل إلا الى الأسوأ ، والا فى القليل الذى لا ترتفع به همتها ، ولا تهذب به صورتها .

ثم قد تطوف بذاكرة المرء صورة لبعض قرى البلاد الغربية التى عرفت فيها نظافة المبانى ، وبشاشة الوجوه ، ويسر الأهلين ، وتذليل أسباب العيش لمنىء ، فتأخذه الرعدة شفقة وجزعا ، ويستعيذ بالله من وهدة تتردى فيها قرى مصر ، ويكاد يستولى اليأس على نفسه عند ما تجسم له كثرة النواحى الفقيرة الى الاصلاح ، ويصيح من وطأة اليأس قائلا يا لهول طريق هذا الاصلاح ، ويا لوعورته وعسره !

حقا قد يتعذر على المرء أن يتصور استحالة القذارة الضاربة الممضة إلى نصاعة تنشهاها النفس ويرضاها الذوق السليم ، وأن يأمل فى تحول هذا الركام المتلاحق من المساكن الخانقة ، لينتشر بيوتا منتظمة ، يطيب للآدمى فيها الثواء ، وأن يرجو صيرورة هذه الوجوه القاتمة المغبرة المكفهرة ، وتلك الجسوم الهزيلة المتراخية ، إلى وجوه ضرة مستبشرة ، وأعواد صلبة زاهية ، وأن يرى تطور هذه الطرقات المعوجة إلى طرقات لا يتعثر فيها السائرون ، ولا يرتطم فيها العابرون . وأن يجد التواصل والتناسق بين صفاء تلك السماء ، ونضرة تلك الخضراء ، ووداعة تلك النفوس المؤمنة القانعة ، وبين هذه القرى التى تضم فى جنباتها الحزينة من يستمتعون بهذا الصفاء ويسرحون فى هذه الخضراء ويتنسمون أجواء هذا الوادى السخى الجميل .

وإنه لمن المؤلم المضض أن يعيش المرء تحت سماء مصر الخالدة ، وفى عصر يزهو بمدنيته وحضارته ، ويشعر أن نحو أربعة آلاف قرية ونحو ثلاثة أضعاف هذا العدد من الدساكر والمحلات وكلها يتنظمها وادى النيل المبارك الميمون على نحو ما قدمت ووصفت .

لقد لفتت القرية المصرية وشأن الفلاح نظر الكثيرين من العلماء والكتاب من أجانب ومصريين . فوجهوا البحوث فى شتى النواحى من تاريخية ، وجغرافية ، وهندسية ، وعمارية ، وأدبية ، واقتصادية ، وأخلاقية ، وما إلى ذلك ، نذكر من هؤلاء الباحثين على سبيل المثال ماريت ، ورانجلدن ، وآرتن ، والأمير طوسون ، وبروهن ، وديمانجون ، والأب عيروط ، وويلكوكس ، وموصرى ، وكريم ، وهيكل ، وحسن الهلباوى ، ورشاد ، وغلاب ، وغيرهم .

ومع ذلك فانه بالرغم مما جهر به الكاتبون لإيقاظ هذه القرية من سباتها فإنها مازالت على حالها من البؤس والبلاء .

قد يغتبط المصريون لوصول طلائع الإصلاح والتقدم التى بدأت سيرها قبيل بداية هذا القرن إلى شتى نواحى البلاد من سياسية ، وعلمية ، واقتصادية ، وصناعية ، وصحية ،

وقضائية، وزراعية ، وتعاونية ، ورياضية . وكل أولئك متصل بخير الفلاح من قريب أو بعيد .

لكن القرية نفسها — التي هي مثوى هذا الفلاح الممثل لكثرة المصريين — مازالت تحار بمر الشكوى مما هي عليه من سوء حظها رغم ما سن من القواعد لمجالس بلدية ومجالس قروية من سنة ١٩٠٩ أو سنة ١٩١٨ ورغم ما أنشئ من المزب والقرى النموذجية التي كأنها قطرة عذبة في بحر أجاج .

وقد يعجب الباحث فيسائل نفسه : لم تقدمت في مصر شتى النواحي الاجتماعية وخلفت وراءها القرية ممعنة في هذا التأخر الملموس؟ وعندئذ يأنس المرء لاستعراض الأسباب المالية والجغرافية والاقتصادية التي أثرت في تصوير القرية وعملت على تأخرها . وقد يلوح له أن يفسر تجمع البيوت وتكدسها في القرى بأنه كان نتيجة لمقاومة المعتدين حين كان الأمن مختلا والسلام مضيعا . وربما يجد أن العلة في ذلك ترجع لتأثير الري حين كان يعم الأرض في مسافات شاسعة ويبقى بها الماء زمنا طويلا، وربما أتى على البناء . وربما يبدو للباحث أن انحطاط القرية كان نتيجة طبيعية لضعف ثقافة الناس وانحطاط مستوى ذوقهم العام .

على أنه إذا كان من أسباب انحطاط القرية المصرية هذه العوامل شتى أو جميعا فحسبي أن أكبر العوامل أثرا وأبقها خطرا هو ضعف الإرادة الإصلاحية واسترخاء عزيمة من يعنيهم هذا الاصلاح .

من الحق أن العوامل المحلية وشؤون المحيط، لها أثرها الفعال في حال القرية، لكن ليس من الحق أن يتخذ من أثر الطبيعة تكأة لتخدير الهمم الإصلاحية حين يزعم الزاعمون أن القرية المصرية ظاهرة اجتماعية لا بد أن تخضع حتما في صورتها لعناصر المحيط الطبيعي وسلطان البيئة ، فهي ولدة من تراب مصر ومائها وجهل الفلاح وفقره وقنوعه وعاداته . فحقيق عليها أن تتأثر بما نشأت عنه من تراب وجهل وفقر وقنوع، لكن قد تناسى هؤلاء الزاعمون أنه متى كانت عزيمة الإنسان كبيرة ونزعاته سامية وعقله المدبر قويا فإن عوامل الطبيعة لا تلبث أن تخضع ويضعف أثرها أمام مضاء العزم وقوة الفهم وعظمة الهمة والنزوع الى المثل الأعلى .

لقد كان "محمد علي الكبير" من ذوي العزائم الاصلاحية القوية، لكن عزيمته كانت مطبوعة بطابع الجندية ، فكانت المصانع والمنشآت والمدارس والمعاهد العلمية التي أنشأها وأرسى قواعدها ودعم بناءها ، تتناسق وتتعاون جميعا لخدمة القوى الحربية . فلو أن حركة اصلاحية انبعثت من عزيمة مشبوبة كعزيمة محمد علي واتجهت نحو القرية المصرية في صدق وثبات لخصص أضخم رصيد في ميزانية الدولة لإصلاح القرية والفلاح ، ولوجه أظهر تشريع

لما فيه خير الفلاح وسلامه ، و لحادت بحوث العلماء و إلهامات الأدباء فى سبيل القرية ، ولسخرت أنواع الفنون تسخيرا لما فيه نفعها وترقيها . و على الجملة لتضافرت جميع القوى لتستحيل قوة متحدة ماحة فى إخراج الفلاح من الظلمات الى النور ولتصبح كلها فى لحن واحد متناسق . . " ريف مصر وقرية مصر وفلاح مصر " .

فضعف العزيمة الإصلاحية إذن هو السبب الأول فى وهدة القرية المصرية . أما السبب الثانى فهو الخطأ فى التصميمات التى رسمت لإصلاح القرى . ومن مظاهر هذا الخطأ أن الذين رسموا السبل لهذا الاصلاح لم يصيبوا التوفيق المرتجى برغم غيرتهم المشكورة . فالذين نشأوا المستشفيات المتنقلة لعلاج بعض الأمراض المتوطنة قد يبرئون بعض المرضى لوقت قصير ثم لا يلبث المرض أن يعاود الفلاح لعودته الى أسلوب الحياة الذى جرا اليه مرضه وسقامه. فكأن المصلحين يقدمون العلاج و يغفلون الوقاية .

وكذلك سنت قواعد وقوانين لردم البرك والمستنقعات ، على أنه أغفل فى الحساب تيسير الوسائل لردم هذه البرك والمستنقعات ، فما زالت أكثر القرى تحيط بها البرك بل وتغلق فيها خلقا وظلت القوانين واللوائح المسنونة معطلة لعسر التطبيق و إهمال الوقاية .

شهدت فى يوم من الأيام طبيبا من أطباء وزارة الصحة يفد بموكبه وعربته المتنقلة وأشرطته المتحركة فيعظ أهل القرية و يعرض عليهم فى ساحة من ساحاتها بعض ما تمثله الصور من انتقال الأمراض وتطورها . فكانت مظاهرة لطيفة تسلى فيها النساء والأطفال ، وتذوق منها الشيوخ الكلام المعسول ، و بعدئذ انطلق كل من السامعين الى شأنه ومضى لسبيله ليعود فى حياته الصحية سيرته الأولى .

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وحضرت فى ذات يوم من الأيام مجلسا ضم سراة القرية وأخذ أحد الأطباء يقيم لهم الحجة بعد الحجة ، ويدلل لهم على فصل جعل الأسمدة والمتخلفات المنزلية والأحطاب بمأى عن البيوت . وكان جميع السامعين يظهرون استحسانهم لقوله و يؤمنون عليه كأنهم قد استجابوا من فورهم لدعوته ، لكن لم تنقل الأقدار من مكانها ولم تتغير مواضع الأحطاب .

فالوسائل التى جادت بها قرائح الغيورين على الاصلاح غير موصلة إذن للغاية المنشودة فلا نصح الناصحين ، ولا وعظ الواعظين ، ولا مكافحة الأمراض المتوطنة على نحو ما تكافح به ، يبلغنا ما نرجو لريف مصر من سمو المكانة .

وعندى أن العلاج الحاسم انما يكون مرجعه السلطان والقهر والتضحية ؛ فلو كان هذا الطبيب الذى جمع شيوخ القرية ليخيل لهم النصح يملك أن يحملهم بسلطانه على ما يريد

لهم من خير وكان وراءه من النظم التشريعية والتنفيذية ما يجعل إرادته ماضية ومشيئته نافذة لاختصر الزمن ووصل الى النتائج المرجوة من أقرب السبل وأدناها الى الغاية .

ولو كان هذا الطبيب الذى استقبل الفلاح فى المستشفى المتنقل تفحصه من مرضه حينا من الدهر يملك لأسباب ليضرب الضرائب ويفرض الفروض تلوقاية من عودة المرض الى الفلاح لما رأينا المصابين بالبلهارسيا يشفون منها لمدة لا تتجاوز مدة تمريضهم إلا قليلا .

وإنها لكثيرة تلك النقائص وتلك الأمور التى يصح أن تضرب الضرائب من أجل محوها أو تحسينها ، وإنها لعديدة تلك الحالات الحقيقية التى يجوز أن تفرض على سواد الناس ليزاولوها أو يجتنبوها . فأفقر الفلاحين قد ينفق من ماله فى المكيفات والتدخين مالو اشترى بثمنه حذاء من المطاط أو الجلد الأصم لوقى نفسه شر كثير من الأمراض . وقد ينفق بعض الملاك من ماهم فى مظاهر الرفه والابهة ما لو أنفقوه فى أدوات الحياة الضرورية لعامتهم الفلاح لأفادوا واستفادوا . ولكن لا وازع اليوم من النفوس والضمائر ولا وازع من القوانين والشرائع ولا سلطان للحاكمين .

ولو أن الحكومة تسخر الناس وتشغل المتعطلين فى فترة من فترات العام التى يسكن فيها نشاط الأعمال الزراعية لتصلح القرى بشق المنافذ وتعبيد الطرق وردم المستنقعات ونزع الملكيات العابثة المعطلة للإصلاح وغرس الأشجار وتهذيب الشكل لما اشتكى حارس خزانة الدولة من ضخامة تكاليف الإصلاح حين يقدرها المقدرون بما ينيف على الثلاثين مليونا من الجنيهات .

قد يقولون : " إنه قد فات زمن مثل هذه السياسة الإصلاحية القاهرة التى تحد من الحريات ولا تتمشى مع الديموقراطيات . لكن ما العمل اذا كانت الحريات تستخدم استخداما خاطئا لا يرضاه الله ولا يقره الذوق السليم ولا يساير حاجة الحياة من التحسين والتجويد والكمال ؟

ان القوانين الحازمة السريعة من أنجع الوسائل التى تربى الشعوب فى أخلاقها وذوقها . وفى الحديث " إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن " أيباح أن تحيا الحريات الباطلة ويموت الذوق السليم ؟ أيباح أن يحيا العدل فى الحياة ويقبر الحسن والجمال ؟ كلا فما كان ذلك من الخير وما كان ذلك من الحق والانصاف .

ان الشعوب كثيرا ماتتربى كما يتربى الطفل حين يستخدم فى تربيته وتنشئته كلا الترغيب والترهيب ، والهزج والتأديب .

ولقد روى أنه شكى إلى أبي بكر بعض عماله ليقتص منه فلم يقبل أن يؤاخذ عامله ، وقال رضى الله عنه مستنكرا : " أأنا أقيد من وزعة الله " ؟

و بينما كان أبو بكر يبيح لوكيل الحاكم أن يأخذ الناس بالسلطان فى سبيل الخير ، نجد أن حكامنا الإداريين يتحرجون أن يستخدموا الحزم فى هذا السبيل خشية أن يتعرضوا للمؤاخذة والجزاء و بطش القانون والقضاء ، مع إيمان هؤلاء الحكام بأن فى الريف نواحى شتى يتيسر لهم إصلاحها لو منحهم القانون شيئا من حق الزجر والإرهاب والحد من طغيان الحريات الآثمة .

لقد نرى مع الأسف أن رجال القضاء لا يحسنون الظن بعدالة الحكام الإداريين ، ونراهم يضجون اذا هم ظفروا بالسعة فى النفوذ والسلطان. وأن الحكام لا يحسنون الظن بالقوانين والنظم المقلدة كأداة للإصلاح فى القرى ، وأننا حين نشهد تجاذب الطرفين نميل الى أن نقرر أن فى كل من القانون والحاكمين نقصا ينبغى أن يكمل . ولعل نقص القانون كان من أن أكثر مواده مستنبطة من روح الحياة الغربية وتقاليدها وثقافتها مع ما بيننا و بين الغربيين من فوارق ذاتية ومعيشية. أما نقص الهيئة الحاكمة فربما كان مرده الى عدم العناية والاحتياط فى اختيار بعض الحاكمين .

ونظرا الى ضعف الأداة الحاكمة والقانون ، يرجح بعض المفكرين جانب المدرسة والتعليم كوسيلة أساسية يجب تقديمها على غيرها من وسائل الإصلاح المنشود . وليس من ينكر قيمة المدرسة فى ذلك الإصلاح لولا أن التعليم وحده لا يحدث إلا أثرا بطيئا قد يظل به الريف طويلا على ما هو فيه من تعاسة وانحطاط . فطالما أدرك الفلاح عن سبيل العلم وتلقن عن طريق الدين أن النظافة من الإيمان ، وأن الباقيات الصالحات خير ، وأن الله جميل يحب الجمال . ومع ذلك ظل يتردى فى مهاوى القذارة ، وظلت القرية بمعزل عن الحسن نافرة من معانى الجمال . ذلك بأن الناس ، مذ كانوا ، يعلمون الخير و يعملون الشر ، وقد يعرفون طريق الجنة لكنهم يسيرون فى طريق أهل الجحيم. فلا سبيل للخير إلا بممارسة الخير واعتياده. ولا سبيل لدفع الشعوب المتأخرة الى الخير إلا عن طريق التنظيم القاهر المسيطر المتشكل فى صور القوانين والقواعد النافذة .

ومن المفكرين من يترجح عندهم أثر الحياة الاقتصادية على كل أثر ، فيجدون أن الاصلاح المرتجى لريف مصر وقراها قد لا ينال إلا إذا حسنت أحوال الفلاح الاقتصادية فزاد كسبه وكثر دخله . و إنى لا أنكر قيمة الثروة وزيادة الكسب كعامل من أهم عوامل الترقى والتقدم لكننى لا أقترى على الحق شيئا حين أزعم أن قرى كثيرة لا ينقصها الرخاء ولا يعوز أهلها

الثراء ومع ذلك ظلت فى كبوتها وانحطاطها . ذلك بأن الثروة والرخاء لا يستلزمان حتما سمو الذوق وسلامة الطبع . وليس الفقر والمتربة بمبعدين صاحبهما لزاما عن حسن الذوق وتوخى الجمال، فقد ذكر لنا التاريخ وانبأنا المشاهدة أن شعوبا أعوزها المال والرخاء دون أن يعوزها ذوق الجمال . فما كان الفلاح فى اليونان القديمة ثريا ولكنه كان غنيا فى تذوق الجمال .

وليس بعار أن يضيع غنى الغنى ولكن عار أن يضيع التجمل، وكم من زهرة باسمة نبتت عفوا ولكنها تعين على تذوق الجمال من يهمه تذوق الجمال . وكم من مجرى ماء يعين على الطهر والنظافة من يعنيه أن يتطهر و يتنظف .

و إنى حين استعيد تاريخ الصبا وذكريات الماضى قد أجد فيهما ما يقوى عقيدتى فى أن الفقر لا يحول بين الانسان و بين العيش المبرأ من مظاهر القبح والضعة ، فقد نشأت النشأة الأولى فى قرية صغيرة على فرع من فرعى النيل ، وليس حظها من الانحطاط ونصيبها من القذارة وسهمها من الحاجة الى التنسيق دون شبيهاتها من قرى مصر . لكن شاء القضاء من نحو أربعين عاما أن يرسل الى هذه الناحية قرويا لبنانيا وزوجته فاستأجرا على مقربة من القرية مساحة تبلغ خمسة أفدنة كانت لبعض أهلى على الشاطئ ، وأقاما فى جزء منها كوخا من اللبن والقاب والطين ، وقسماه غرفتين لمتاعهما القليل من مراتب وذرابى وأغطية ، ونصبا عند مدخله بعض فروع الشجر وشكلاها لتصير سقيفة تسلقت عليها كروم تظل مصطبة من الآجر . وعند هذه السقيفة وعلى مسافة أذرع منه قد نثر الورد والريحان ، ووراء هذا الكوخ سياج من القصب والحطب وحواجز أخرى أعدت لقرة حلوب ولبعض الدواجن ولأدوات الخبز والطبخ ومكان الغسل والتطهير، وكان أغنياء القرية وسراتها يحدون لعيونهم ولصدورهم عند هذا الكوخ النظيف المنظم متعة وانشراحا فيذهبون من وقت لآخر ليريحوا النفس من غمة قريتهم ومساكنهم المتغلغلة فى محيط من الأقذار .

ولقد عاد رب الكوخ وربته لبلادهما فى شيخوختهما المباركة وعفت السنون وغيّر الأيام على آثار هذا الكوخ . ولكنى كلما ذهبت إلى القرية وسرت هناك على شاطئ النيل نظرت إلى حيث كان كوخ الشيخة وردة وزوجها الشيخ أنطون ، وعاودتنى بعض ذكريات الصبا وخيال الماضى ، وتمنيت لفلاحاتنا وفلاحينا لو هيأوا أكواخهم ونظموها كما فعل الشيخان "وردة وأنطون" فلقد كانا دون أكثر الفلاحين ثروة ، لكنهما كانا من الذوق أغنى وأرقى من الكثيرين من أعيان القرى .

إذن ، ليس الفقر وحده هو الذى رتب بؤس القرية وهبوطها فيما تتردى فيه ، فإذا أراد المصلح الاجتماعى أن يتمثل عناصر المرض التى هيأت بضعة القرية المصرية فليعلم أنها مزيج

من ضعف العزيمة العامة فى الإصلاح وعدم تناسق المشروعات، والبطء المزمن فى إجراءات الأداة الحكومية ، ومحاكاة القوانين التى لا تلائمنا، وفى اعتلال ذوق الفلاح واختلال صحته، وانحطاط ثقافته . وفى فقر الحياة الاقتصادية للتنظيم وفيما هو متصل بكل أولئك .

وإذا أراد ذلك المصلح الاجتماعى أن يشير بالعلاج فى حالة القرية فلن يبدو له العلاج إلا مزيجا أهم عناصره القوانين الزاجرة ، والنظم القاهرة ، والاجراءات السريعة الشبيهة بإجراءات الأحكام العرفية ، وفرض الضرائب وتسخير كل القوى التى يجب تسخيرها لإنقاذ القرية وتقديم ذلك على كل ما سواه .

فلو أن وزارة الشئون الاجتماعية أتيح لها أن تقوم بتشريعات جريئة قاهرة سريعة التنفيذ وتسن تنظيمات مسيطرة تتأكد بها معانى السلطان لأدركنا ثمرات من جهودها فى بعض السنين .

ولست أرمى من وراء ذلك إلى أن أغمط الوزارة مجهودها فى نشر الدعاية وإعداد المحاضرات وتهيئة وسائل الإرشاد . إنما مازلت أعتقد "أن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن".

فى مصر الحديثة من يؤمنون أن كل جهد صالح فى سبيلها مهما كانت وجهته ومهما تنوعت صبغته لا يبوئها المكان الجدير بها بين الأمم مالم ينصلح حال قراها وفلاحيها وهم يبلغون ثلاثة عشر مليونا .

ونحن الآن نعيش فى عصر السرعة والسير الحثيث العاجل لصالح الجماعات . وهل لأبناء مصر وقد منحهم الله ذلك الوادى الجميل المزود بكل الخيرات أن يشكروا ربهم على ما آتاهم ، وأن تكون آية شكرهم العمل على تجميل بلادهم وصيانة هذه الزبرجدة الخضراء من وصمات القبح والتشويه .

هل لقوانين مصر، وأموال مصر، وجهود المصريين، وقلوب المصريين، أن تنصرف متعاونة لإصلاح القرى لتجعل حياة مصر الاجتماعية الواسعة فوق كل حياة ، ومجدها قبل كل مجد سواه ؟ !

هيهات ، هيهات أن يدركنا النصب فيما نؤمن به وندعو إليه !

منصور فهمى